

الباب الثالث

قوة الحياة في الميزان

نقد نظرية برنارد شو ، ومقارنتها بالنظريات الفلسفية
المعاصرة لها ..

في أو هام نظرية جورج برنارد شو الجديدة وقوة الحياة وقدرتها على الخلق ، يقف الإنسان حائراً مكتوف اليدين ، مشلول الحركة ، مبهور الأنفاس ، لأن ما يقرأه لقادة الفكر والرأى من نظريات جنونية تكاد تهدد كيان الديانات ، وتهدم أركانها ، وتزعزع دعائمها ، وتسبب للعامة متاعب جمة ، وهم أحوج ما يكونون إلى الهدوء والسلام ، وإلى الراحة والاستقرار .

من هو برنارد شو؟ ذلك الذى يطلع على الناس بنظريته هذه ، فيخلق رجال الدين ، ويقض مضاجعهم ، ويجعلهم يشعلون من جديد ، ويعملون في المجتمع لرد فيضان الاتحاد عن الناس ، ويرفعون أكتفهم إلى السماء ضارعين أن تريحهم من هذا الشيطان الأفاك الذى يتدثر فى ثوب الكفر المطلق على هيئة إنسان يعيش بينهم .. فما يجيب لهم السماء طلباً من طلباتهم المتتابعة ، بل تمنى فى إطالة عمره فتزيد من قلقهم واضجرهم ...

لماذا يحوط برنارد شو هذا الغموض ، وهو يدعى بأنه مفكر حر؟ ولماذا ينسب المفكرون الأحرار بمبادئه حقيقة عفى عليها الزمان ؟ . فى حين أن خط مستوى المقارنة يجب أن ينشد الحرية كما هو مفروض ؟

فشل المفكرون لأنهم لا يفكرون بحرية كافية . أو لأنهم لا يعرفون كيف يحافظون على خط مستوى التفكير مستقيماً فى ذاته ، منظماً على الدوام . لأنهم ينحرفون عن ذلك الطريق القويم ، وينشدون الطرق الملتوية الشائكة ، فيخرجون على الإنسان بنظريات وديانات جديدة تسلط على عقولهم واستحكمت على كل خلجة

من خلجات نفوسهم ، فظنوا أنهم بذلك إنما ينيرون الطريق أمام البشر ، ويكتشفون سر الخلق والوجود ، وما علموا أنهم يضربون في الهواء ، في أفق لا يقفون له على مدى أو نهاية ١١

هذا هو هربرت سبنسر أحسن فيلسوف ظهر إلى الآن .

سار في طريقه ليبدد الظلمات ، ثم وقف فجأة على قاعدة صخرية صماء . وعمل أزميله في هذه القاعدة الصخرية على يصل إلى المجهول . وظل ينحت وينحت خلال الزمان والمكان ، حتى توقف به الازميل فجأة ، وما عاد بعدها بعمل أو ينحت مليئاً واحداً في صخور الزمان والمكان فيقول :

وراء هذا ... المجهول ١١

وأعلن أنه من الخطأ الفادح أن يحاول الإنسان جمع معلومات خاصة عن دله ، غير معروف . من العسير الوصول إليه . ثم يرى علم اللاهوت بأنه علم لا يؤدي إلى معرفة شيء ، إذن فهو علم مبدد ...

ثم بدأ بفشر تعاليمه أو المبادئ الأولى ، معلناً بأن المجهول هو على العموم منظم ومحسن كبير . كما أن من أبرز صفاته كراهية التسليح ، وحب الصناعة والخلق . أو بمعنى آخر كان شيئاً مماثلاً لهربرت سبنسر نفسه ١١

واستمر سبنسر على هذا النمط وهو ياتي بأفكاره وآرائه عن الحقيقة المغلفة والتطور ، تطور الحياة والعقل والمجتمع والأخلاق ، فتهافت عليها كثيرون من الناس والمفكرين ، ويحاولون أن يقفوا منها على حل مناسب ، حتى ظهر جورج برنارد شو والابتسامة العريضة تملأ وجهه ، ويبد واحد أمكنه أن يحرر العامة من قيود سبنسر وتندال وغيرهما من ذوى المواهب ، وهم يسرون بسفينة الفكر تجاه شاطئ الوعي الأعظم .

وبدا أن يختصر شو الطريق ، ويأتي بالحقائق دفعة واحدة ، لئلا أن يسير في طريق سبنسر . ويقع في نفس الاحبولة التي نصبها له أجيال الفكر المربدة . فيبحث عن ذلك الإله ، المجهول الذي بحث عنه سبنسر ، فإذا تلبسه أطلق عليه

اسم « قوة الحياة » . هذه القوة تعشق الجمال والحق . وتعمل التجربة تلو التجربة وترتكب أخطاء . ولكنها لا تنجم ولا تغضب لخطئها ، بل تستمر وتستمر تلقى بأبحاثها وتقوم بتجاربها ، لأنها تسعى إلى السكال وتحيف في سبيله كل فشل .

ومن محاولاتها العديدة أنها نجحت في إيجاد عالم وأرض وسما . جاءت كلها بنفس الطريقة التي أطالت بها الزرافة رقبتها . . . الحاجة الماسة الشديدة . . .

وأصبحت هذه العقيدة الجديدة - قوة الحياة - دستور كثيرين من أحرار المفكرين في أخريات القرن التاسع عشر ، وهذا القرن العشرون .

ويدعى برناردشو أن نظريته مبنية على قواعد علمية بحنة . وأهـى حياته كلما يحاول أن يجعل الناس تعتقد فيما يسميه « تاريخا طبيعيا علميا أصليا أنظر ص ٧٠٣ مقدمات »

إنه يريد أفكارا حرة منزهة . . . تسمو وتضاف إلى مجموعة المعرفة الحقة التي نسميها علما . . مقدمات ص ٦١٣ ،

ولكن اضطرابا خفيفا ، وارتباكا شديدا يجثمان على الصدور . فالتفكير الحر يجب أن يكون منزها من الاضطراب والارتباك ، فـ « قوة الحياة » ، إلا فروض وأوهام . وكيف يستقيم التفكير الحر مع مجموعة من فروض وأوهام ؟

« الفكر الحر الحديث كالمجلة تماما تدور على محور ثابت وتتحرك في طريق واحد ، بعيدة عن الحقائق . . بعيدة عن الذوق السليم .

هكذا يفسر الفكر الحر في هذه الأيام - مجموعة كبيرة من المفكرين الأحرار . . لا يحضرنا الآن غير فكرة واحدة ، تطورت تطورا ملبوسا ، وتقدمت تقدما لا بأس به لمدة قرون طويلة ، وهذه الفكرة فكرة صحيحة منزهة ، لا التواء فيها ولا اعوجاج ، تنير أمام الإنسان ظلام الحياة ، وتبدد له خرافات الناس وأوهامهم ، ولكن الذين يعجبون بنظرية « قوة الحياة » ، يرفضون هذه الفكرة عن إباء وشمم أى أنهم ينكرون وجود الإله العظيم المسيطر على الكون بقوته ، الخالق الجبار ، خالق الأرض والسماء ، والكواكب والشموس والأقار .

كانت هذه الفكرة ، قد أضيفت إلى مجموعة المعرفة التي نسميها علما ، قبل أن يولد جورج برناردشو . ومن ثم تمكنت في النفوس ، وتركزت في هيكل المجتمع ، وحصلت على مكانة مرموقة ، وهددت القوانين العتيقة والخرافات والاساطير بالموت والزوال . ودانت اليها جميع القوانين الجديدة بمجرد أن اقتنعت بها النفوس هذه القوة الازلية التي تسيطر على الكون في وسعها أن تلهي نارا ، وفي استطاعتها أن تحولها إلى ثليج وبرودة . . . ووظن الفرد العادي إلى هذه القوة واعترف بها ، كما اعترف بقانون الجاذبية مثلا . وحتى جماعة المهندسين ، وأرباب الهندسة ، وجدوا الفكرة أبدية جوهرية فسموها القانون الثاني لعلم الحركة الحرارية - ثرمودينامكا . يقول علماء الهندسة إن العالم يميل إلى التعادل الحراري .

ونحن نعيش في عالم تبرد فيه الأشياء عاما بعد عام . إن كل ما في الوجود يعتمد على هذه القوة ذاتها ، لارتباط كل شيء بها ارتباطا وثيقا في كل يوم . وفي كل لحظة من لحظات الحياة .

هي - قوة - مستقلة استقلال تاما عن غيرها من القوى . وعلى هذا فإذا كان العلماء يقولون ويعترفون بالحركة الحرارية . فالفرد العادي سواء عرف هذه القوة أم لم يعرفها ، فإنه متأكد منها تمام التأكد تأكده من بزوغ الشمس كل صباح .

هذه الفكرة ذاتها هي أم قوانين العلوم جميعها . كل الظواهر تدور حولها في رهبة . لم تصطدم بها حادثة واحدة ، ولم تشبك ظاهرة واحدة معها في عراق . لأن كل الظواهر تخرج منها . فالحركة والطاقة والحرارة والحياة تخرج منها هي . . . كامنة فيها ، ومن حقها إذن أن تسيطر على العلوم وتتحكم في العقول من غير أن يناقشها في حكمها إنسان !

إذا نبذت هذه الفكرة أو القوة أو تقولات عليها فكأنك ، والحالة هذه نبذت العلوم الوضعية جميعها وتلقى بها جانبا .

ولكنك إذا اعترفت بها فكأنك تهدم دين التطور هداما من أساسه ، وتلقى بنظرياته إلى أعماق المحيط . . . !

هنا ينشأ الصراع من جديد ، ويضل العقل ، ويفاق عليه الفهم ، وتعتد حيرته ولكنها أمام جماعة معينة من الناس ، هؤلاء الذين يقلبون الأمور على جميع وجوهها ، لا تقف عند هذا الحد ، بل يحاولون أن يفسروا هذه الوقفة ويجدوا لها تعليلاً مناسباً ، ولعل أبرز هؤلاء هو صاحبنا جورج برنارد شو ١١

أما عبدة التطور وعشاقه فيحاولون جاهدين أن يتمصوا من القانون الأزلي المحكم - الاعتراف بوجود الواحد القهار - ويرفضوا الاعتراف بالحقائق التي يحكمها العقل ويقيم إليها المنطق .

وهؤلاء العباد والعشاق لا يصمدون للعاصفة - عاصفة النقد - وأول ما يفعلوه أن يتشبثوا كالغريق بنظريات جاليليو ونيوتن ، ويقفزوا إلى النتائج قفزاً من غير حساب ، ويشيروا إلى ملاحظة البندول وسقوط التفاحة ١١

ولا تلبث هذه الشرذمة من العلماء أن تمجد أعمال دكفن ، وتعارض حاجة الحياة إلى إله حقيق يسيطر عليها ويجعلها تدور على الدوام ، لأن الحياة عندم خرجت من بطون معاملمهم وترمو مترانهم وأنايب اختباراتهم ١١

إنها هذه الشرذمة التي تعمل بالمقياس ، وتجري تجاربها على أزواج الحمام والخنائير لتبرهن على وجود إله ، يتطور في المادة تحت رحمة أخطائه ، رغم أنهم لا يفقهون شيئاً عن أسلوب وبحت دكفن ، التركيبي ، وطريقته في جمع الحقائق الصحيحة في خطوات واسعة ، ثم يرتب الظواهر كما تظهر أمامه ترتيباً صريحاً لا خطأ فيه . إنهم يخلطون بين الواقع والخيال ، بين الحق والباطل . ثم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يعودون ليشوهوا نظرية دارون - وهم أنفسهم الذين مجدوها وارتفعوا بها إلى عنان السماء ، ويحاولون أن يخلصوها فيجعلوها تطابق المعلومات الجديدة المختلطة التي توصلوا إليها اعتباطاً ، فيهدموا أنفسهم ، ويهدموا أبحاث الأمتس وبقوضوها شر تقويض ..

إنهم يريدون أن يجمعوا الأشياء من الناحيتين ، وكان يجب عليهم أن يواجهوا الحقائق ويدرسوها دراسة دقيقة ، لأنها ستقودهم إلى الطريق الصحيح ..

لأنهم يهزبون - كما قات - في صحراء واسعة لا نهاية لها .. إذا لم يعترفوا بهذا القانون الأول - الإله الواحد خالق كل شيء - فإنهم بذلك يهدمون كل نظرية فلسفية أو خلقية أو اجتماعية دونتها الكتب . لاحق ولا جمال ولا شيء غير الرجل ، - كما يقول أمبر - يفرق بدون أمل في بصاقه !!

كانت أبحاث الفكر منظمة حتى عام ١٨٥١ ولكن فريفا من العلماء استهوت آراء لامارك ودارون وهكسلي وهيجل ، المتطرفة ، وتجاهل آراء رجيل آخر من المفكرين الأحرار أمثال كارنوت وكلووز وجول وكلفن .

الإنسان بطبعه يميل إلى الشر . فما أكثر هؤلاء الذين انساقوا إلى أفكار الفريق الأول يعبدونها ويمجدونها ، ويتجاهلون أفكار الفريق الثاني النيرة الحية ..

في عام ١٨٨٧ كتب كلفن يقول : بدأت أبحاثي منذ أربعين سنة مع جول ، فوقفنا على نتائج هامة لنظرية الحركة الحرارية . وهذه النتائج أهم وأعلى قيمة من أى معلومات جمعتها في حياتي ، ويمكن أن يجمعها إنسان تستهويه العلوم ، وتستحوذ عليه كل حواسه طيلة حياته .. ،

ولكن الناس سرعان ما يحملون العلوم التي تحقق ضرورة وجود خالق اسمي ، أو عند ما نحاول الأبحاث البيولوجية أن تهدم أساس هذا الاعتقاد الرزين المسكين . لقد طغت على العالم أفكار الملاحدة ، وأن الطبيعة هي التي خلقت نفسها ، وأن المعجزات لا تحدث . وأن العالم في تقدم مستمر ..

ولم يصادف العلماء المدققون نجاحاً يذكر ، كما أنهم لم يمنحوا فرصة لتفسير الحقائق التي توصلوا إليها . ويثبتوا للناس أن الأشياء لا تخلق نفسها بنفسها ، وأن الطبيعة في ذاتها معجزة وأى معجزة ! وأن العالم يسير ببطء نحو نهايته ، ولكن أنى للناس أن يسلكوا طريق الخير ..

إن الشيطان يقودهم في طريق الشر بمغرياته وأفانيه ومفاته !!
وانفصل الفريقان إلى قسمين :

فريق يقول : الحياة تقفز بخطى سريعة في طريق الكمال .

وفريق يقول : الحياة تنهار وتنهار إلى الأعماق ..

أما الفريق الأول فعماده جماعة الديمقراطيين الاجتماعيين ، والفوضويين ، والماركسيين ، ومحلى القوى العاقلة ، والعلائيين ، والروائيين ، والدراميين ، والشعراء ، يقدمون جميعاً أناشيد النصر أو أغنيات الحرب إلى ، قوة الحياة ، ينساق الكل ويتسابق في أفق لا نهاية له ..

أما الفريق الثانى فعماده فريق واحد عرف باسم ، المفكرين الأحرار فقط ، مثال ميشيل فراداى - لوقت قصير - وكلاارك ماكسول وجرجور منسدل . وبلغت درجة الجنون بالفريق الأول حداً بعيداً ، حتى اكتشف الراديو عام ١٨٩٨ ، ومعاهدة فرساي عام ١٩١٩ . ثم بدأ ينفرق ، ويحل تدريجياً ، ويتلقى الصدمات والضربات قوية قاصمة .

وسرعان ما اختفت اللافتتان ، صعود وهبوط ، وحلت محلهما لافئة جديدة . وهذا الدوران الجديد لم يكن غير ، نظرية النسبية ، تبادل الانتساب أو حال النسبة . وسرعان ما انضم إليها أحزاب اليسار بسرعة عجيبة .. ولكنهم سرعان ما فتحوا عبونهم أيضاً على أخطبوط التناقض وقد عمل عمله فيها ، فانقسم العلم أولاً إلى قسمين . ثم إلى عشرة آلاف قسم ...

وتحول القول المشهور ، إن الرجل سيد نفسه ، إلى ، كل رجل هو عالم نفسه ، وولد بذلك المذهب الحيوى لعلم ما وراء الطبيعة .

ولا هذا أيضاً أتى بالفرض المطلوب أو أوفاه حقه من التمهيص .

وعاد الفريق الأول إلى نظرية ، تنكائر الأنواع ، ولكن المعضلة لم تنشأ من هنا ، لأن انقسام العلم صدع أركان الاعتقاد ، كما بدأ نيوتن يتحول عن مذهب التوحيد ، لأنه لم يجد معادلة للتألوت - اتحاد الثلاثة في واحد !!

وهنا أيضاً يبدأ الطرف الجنونى للمعضلة بعمل عمله . فآزيمت القوانين العلمية من قواعدها القديمة ، ووضعت على قواعد جديدة أخرى تنص على أن الحوادث حدثت من جراء حوادث أخرى ..

وكان صاحب هذه العقيدة رجلاً اسكتلندياً قال بأن هذا مجرد شعور فقط ،
أى لا بد أن تكون هناك حوادث مباشرة تأتي بحوادث أخرى مشابهة ...
وسرعان ما اعتنق العلماء هذا الشعور وأطلقوا عليه اسم « البديهة الضرورية » ،
ولم تسلم القصة من الشرور أو درجات الجنون ، فتحولت بفضل بعض المجانين
أيضاً إلى تقويض القوانين الطبيعية تقويضاً من أساسه ، ونشروا العقيدة الجديدة
التي تنص على أن « الخالق الحقيقي » لا ضرورة له ، وأن إلهاً خيالياً هو الذى يعوز
العقل الحديث . وأن الفكرة القديمة التي تقول بأن الله أنقذ البشر قلبت إلى هذا
الوضع الغريب الشاذ . وهى أن البشر هم الذين أنقذوا الله ! إلى غير ذلك من
الافكار التي اعتنقها علماء القرن العشرين الملاحدة من غير وعى . واهتموا بالطبيعة
بأنها عاجزة غير قادرة .

ولست أدري إسمعان هؤلاء في الخلط بين حقيقة الأشياء وبين خيالهم ، بل كيف
يسمون أنفسهم علماء . وهم أوهى الناس فكراً وعلماء !!! ...

لو نظر هؤلاء إلى الشمس وهى تسطع بحرارتها توزعها توزيعاً عادلاً على كل
مخلوق في هذا الوجود ، تنمى له الزرع والضرع ، وتسوى الفجعم في باطن الأرض
لعرفوا أن الطبيعة قادرة وليست عاجزة ، وأن القوى التي تسيورها أقوى من كل
القوى التي أوجدوها ، وأحكم وأعقل منها بكثير ... وغير ذلك من الظواهر التي
ثبتت أن في السكون إلهاً يسيطر عليه ويحركه في كل طريق قويم . .

ولنعد الآن إلى رأى برنارد شو نفسه في الوجود الأعظم ، فلا نخاله إلا أحد
هؤلاء الملاحدة الذين ينتمون إلى الفريق الأول ، فقد كتب إلى الكاتب الشهير
تولستوى الروسى يقول في رسالة نشرها أرشيبالد هندرسون في كتابه عن برنارد شو
ص ٥٢٩ بالنص الآتى :

« فى رأى أن « الله » لم يوجد بعد ... ولكن هناك قوة خالقة تعمل جاهدة
على تكوين وخلق إله . وفى رأى أيضا - إذا نحن لم ندرك أن هناك كفاحاً مستمراً
لإبراز هذا الإله الخالق - فإننا لا ندرك شيئاً غير قوة متعاضمة قادرة على كل شيء !! »

وفي كتابه ، الرنجية تبحث عن الله ، الذي ظهر عام ١٩٣٢ يقول في صفحة ٥٥ :
« إن اعتقادي الشخصي ، أن شيئاً يجذبنا ، إليه ، . وهذه حقيقة . . كما أن الشيء
الحقيقي الآخر ، أن هناك أخطاء كثيرة متشعبة تظهر في الوجود . . . وهو بذلك يدعي
أن « الله ، وإن كان خالداً ، إلا أنه ليس أكثر من « غابة » وهذا الاعتقاد الغريب
الذي ينص على أن الله عز وجل لا يزال يلقى تجاربه ، ويرتكب أخطاء كثيرة
في هذا السبيل اعتقاد فاسد من أساسه ، كما أرى ويرى معي الناس . ولكننا آليتنا على
أنفسنا أن نفسر آراءه تفسيراً يكشف معالم الطريق للقاري . .
ماذا يكون حال الناس ، إذا فهم تفسير هؤلاء المفكرين الأحرار لنظريات الحياة !!
برنارد شو بشر مثلي ومثلك ، يرتكب أخطاء مثلي ومثلك . . . فإذا يقول
برنارد شو إذن في « إله » التطور الخالق ؟ . .
هل يمكن هذا الإله أن يقف على ساقيه لحظة واحدة . . . وهو الذي يغير معالم
الاشياء ويطمسها على الدوام ؟ !

ماذا يكون رأى الناس في إله متغير متقلب باستمرار ؟ !
وإذا كان برنارد شو نفسه لم يعتنق هذا المبدأ إلا بعد أن اعتقد وناكد
من نظائفه وخلوه من الفساد ، وأقصد « قوة الحياة » فاعلم أيها القاري أنه استمد
نظريته واقتبسها من أناجيل الرسل في الديانة المسيحية . أقول إنه طالع الأناجيل
ودرسها وخرج منها بفكرة صاغها في قالب آخر . وغير معالم الكلمات والآيات
بكلمات أخرى بطريقة الخاصة فيقول مثلاً : الضمير هو أقوى الغرائز وحب الله
هو أقوى العواطف . . .

ثم يتخذ من أقوال بولس الرسول وتوماس الأكويني حواراً يدخله في روايته
« الرجوع إلى متوشالغ » عند ما تقول « ليليث » كيف أن الرجل والمرأة خرجا
إلى العالم في دوامة التخلص من المادة . . .

ولعل روايته الأخرى - القديسة جان دارك - أكبر دليل على تخبطه واقتباسه
أفكار الخلود من الأناجيل التي درسها وأنكرها ، فيصف لنا يوم الدينونة ، عند ما
اختطف جان ليتخذها مثلاً على تفوق « قوة الحياة » وهي تشق طريقها نحو الكمال
أو نحو الأحداث العليا . .

فبرنارد شو في حالته هذه يعود إلى الفريق الأول، رغم أنه يختلف عنهم، وقد لا يعد منهم. فهو مفكر حر، ولكنه لا يندفع نفسه كالآخرين بأنه غير محكوم بالفرض أو بالغاية. وعند ما يعود إلى عواطفه وينادى بأعلى صوته: «أومن بقوة الحياة، لا يكون كالآخرين، يسلم بالهزيمة، أو يلوذ من الغنيمة بالإياب...» ولقد حاول أحد النقاد مرة أن يسفه من رأيه فسأله قائلاً: «ولكنك يا مستر شو تتحدث وكأنك شخصان ١١»

لجاء الرد سريعاً: ولماذا اثنان فقط ١١٩

إنه لم يتخل عن الموقف الذي اتخذته لنفسه في كتابه «جوهر الابدسية» الذي يحدثنا فيه عن أن «الإرادة» هي الفكرة الأولى والأخيرة... وأن «الغاية» ما هي إلا احتمال ثانوي، أو شيء آلي... فيقول: «فخرنا ومشو شعورنا بأننا بشر معقولون. ولكن هذا الفخر ما لبث أن ذهب، وأصبحنا اليوم نضحك من هذا الزهو والغرور لأننا أصبحنا ذوى إرادة وعزيمة...» قال ذلك وهو في عامه الثالث والثلاثين. وعاد في التاسعة والثلاثين يقول في صفحة ٣٢٣ من كتابه «صحبة الفن» - الحياة مرضاة لعاطفة فينا... لا يمكن لنا بها أن نعطي حساباً معقولاً -

وشو بالإجمال يكاد يكون معقولاً في كل شيء غير شيء واحد هو «الغاية» وهو أكبر مفكر حر في كل شيء غير شيء واحد هو «الفكر» ١١!

وأما عن مذهبه «قوة الحياة» فهو مذهب لا يزال في طريق النقاء. ولا يمكن أن نعبر عنه بغير كلمة واحدة: هو مذهب متسلط على عقول الماديين المتطرفين ومنه يمكن الحكم بأن برنارد شو خاطئ. كل الخطأ في هذا الوهم. وإن كان على حق نسبياً فيما ذهب إليه.

كما أنه لا بد أن يكون قد ولد بعيداً عن ذلك الفريق الأول الذي تحدثنا عنه في هذا الباب. فهم جميعاً يتخبطون خبط عشواء، ويضربون في فضاء لا نهائي لا يصلون منه إلى حد فاصل لأوهامهم وخرافاتهم...

وبرنارد شو يعرف مع هذا أنه مخطئ. وأن هذه الشرذمة مخطئة أيضاً، فينظر

اليها نظرة كلها حذر وتدقيق . ولعله يصف هذه الجماعة أحسن وصف في كتابه المشهور « هارتبريك هاوس » الذي يتحدث به شكسبير .

ولكننا مع هذا كله لا ننكر على الرجل عروضه وشروحه . وعلى الأخص بعد أن تحققت بعض أحلامه . فالسبرمان أوشك على الظهور ، وأصبح وشيكاً أن يسير بين ظهرائنا قلعه وتعرف عليه وتكلم اليه ، وأصبح شبهه متجسماً في تقدم العلوم تقدماً مخيفاً مرعباً يفرع العالم الحديث .

برنارد شو رجل يناقض نفسه ، مربك إلى أبعد درجات الارتباك . . . عسير حله . يعطيك الفكرة ، ويسهب ويطيل شرحه لها ، ثم يهدمها فجأة وبدون سابق انذار من أساسها ، فإذا قلت له كيف تهدم ما تقول ، وتناقض آراءك بهذه السهولة أجابك : عد إلى النظرية أفهمها جيداً ثم احكم بنفسك ماذا تكون نتيجةها ١٩

يدعى برنارد شو بأنه ليس هناك « حق » ويضيع حياته بحثاً عنه ١١
يقول بأن المعاهد تفسد الروح البشرية ، ثم يبني هو معابد ليحررها ١١
ويقول إن الله جل جلاله غير موجود ، ثم يرسل زنجية تبحث عنه ١١
ويقول بأن دينه ، مبني على العلوم الأكيدة ثم يدحض العلوم وينكرها ١١
ويقول بأنه وجد الدين الصحيح . . ثم يعود فيقول إنه ليس هناك شيء دين صحيح ١١

في عدد من جريدة « المستمع » بتاريخ ٢٣ يولييه ١٩٣٧ كتب برنارد شو مقالا سخر فيه من هؤلاء الذين يحبون أعداءهم ويباركون لأعدائهم ! وبعد أيام قليلة أذاع حديثاً على طلبة المدارس يقول فيه : « أحبوا هؤلاء الذين تبغضونهم ، وعاملوهم كما تعاملون أعز أصدقائكم . . هذه المتناقضات هي التي تجبر الإنسان على التبرم به والتشكك في أقواله . . . » وقس على ذلك ألف دليل ودليل . واسكنك ما تكاد تناقشه ، حتى ينسبك موضوع المناقشة ، ويؤكد لك أن أقواله صحيحة ، وقد تقتنع بذلك فوراً ، واسكنك ما تكاد تتركه ، حتى يساورك قلقك وشكوكك ، وهكذا تعود فنقول إنه مخطئ . ومتناقض مع آرائه وتعاليمه . .

ولعل المتناقضات التي جاءت في كتابه ، دليل المرأة الذكية في الاشتراكية ، هي التي حملت الكتابة ، مسرلي مسودير ، إلى نقده والرد عليه في كتاب تقول فيه :
« اغضبني برنارد شو هذا غضباً شديداً ، فرضمت أمام القارىء بمهارة فائقة بعض ما جاء في كتابه من خلل وتصدع . ومن المدهش أن الرجل الذكي العادي أوفر ذكاء من برنارد شو ، وفاتها أن تذكر كلمات برنارد شو :
« وحتى الرجل الذكي سيعتقد فيما يرغب أن يعتقد به ، رغم أنف كل الحقائق وكل ما في الكتب من آيات ... »

فاتها أن تنقف على هذه السطور وتحللها تحليلاً مناسباً لتعرف أن شوايس محرفاً أو غيباً ...
أمطرت الكتابة برنارد شو ، في حوالى مائتي صفحة استعملت فيها جميع كلمات السباب وراحت تصفحه في كل صفحة من صفحات الكتاب ، حتى إذا ما أتت على النهاية فقدت صوابها ، وأنهمكها التعب وأخذ منها كل مأخذ ... بدأت تعيد كلمات شو وتنفق معه في كثير ، وهكذا تخطط بين المعاني فلا تعرف كيف تفندھا ..

ثم استمع إلى ما قاله الأستاذ جون ستارشى في عدد من مجلة « النظارة » الصادر في ٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦ :

« إن برنارد شو خاطيء . لا لأنه يناقضنى ولا يتفق معى . ولكن لأنه لا يتفق مع أهداف الاشتراكية التي كتب عنها . وبالطبع كان برنارد شو حراً في اختيار الالفاظ والمعاني لو أنه فقط أفهمنا ذلك . ولكنه لم يفعل فسبب ارتباكات شديدة مختلفة ... »

الحب في نظر برنارد شو

وخير ما نختتم به هذا الباب ، أن نذكر ما يقوله برنارد شو عن الحب .. وقد استهواه رأى « لاروشفوكلد » - (إن قليلين من الناس لا يقعون في الحب لأنهم لم يقرأوا عنه شيئاً ..)

ويعالج برنارد شو موضوع الحب في كتابه « مغامرات الفتاة السوداء » في بحثها عن الله ، وعلى الصفحة السابعة من الكتاب يصف برنارد شو الفتاة بقوله :
« ... في الغابة الافريقية كانت تعلم أطفال الزوج حب (١) المسيح

والصليب . وكانت مولودة كرسولة حب (٢) وفي المدرسة أعجبت بأحد مدرسيها إعجاباً متيناً . ولم تكن انهم بزميلاتها اللواتي ساوينها في السن والمعرفة . وفي الثامنة عشرة بدأت تقع في الحب (٣) مع رجال الإرسالية، ثم أضحت مخطوبة لستة منهم على التناوب . ولكن عند ما جد الجد ، فسخت هذه الخطبات ، لأن حوادث الحب (٤) هذه كانت أولاً مليئة بالحماس والامل ، ثم فترت ، فأفانت هي منها في آخر الأمر ..

ورجال الدين أنفسهم عند ما ذهبوا إلى الحقيقة فجأة اكتشفوا أن الحب كان حليماً فقط ، أو نوعاً من الجاز ، جاهدوا هم أن يفسروه تفسيراً دقيقاً ، ولكنهم فشلوا جميعاً ..

وانتهج أحد هذه الضحايا . وتركت هذه المأساة في الزنجية أثراً بالغاً ، وأدخلت على نفسها نوعاً من الفرح والاعتداد بالنفس . أي أنها انتقلت من جنة الحق إلى عالم حقيقي يصبح الألم الدفين فيه سروراً بالغاً ..

وهذا هو مفتاح كلمة حب ، كما يفسرها برنارد شو ..

الحب (١) حب بر وإحسان ..

الحب (٢) د ١ و ٣ أو ٤

الحب (٣) د ناله وغرام

الحب (٤) د ضلال وفساد ..

ولنتقل الآن إلى فصل آخر من مغامرات الزنجية الحسناء . في هذا الفصل تكون الزنجية قد امتلأت بروح السبرمان ، فتقول :

« رأيت ملوكاً أرداً من هذا ، فيجب ألا تنجبل .. وعلى كل فلتسكن أنت الملك سليمان ، وأنا الملكة سبأ .. كما جاء في الانجيل .. فأتي أنا اليك وأقول .. أحبك !! وهذا معناه أنني أنيتك لامتلاكك .. أنيت بحب ابوة لأنهمك وأجعلك جزأه

منى .. ومن اليوم يا حبيبي عليك أن تفكر ، لا فيما يدخل السرور على نفسك ، بل
في سعادتي أنا وفيما يطربني ويفرحني ..

سأقف بينك وبين نفسك .. بينك وبين الله ..

أليس هذا ظلماً مجحفاً ١٩

فالحب شيء ملتهم .. هل تتخيل السماء وفيها حب ؟

فجميعها الساحر بنبرات ثابتة وإن كانت مرتعشة ١

« أليس في سمائي شيء آخر غيره .. وماذا يكون في السماء غير الحب ؟

فتجيبه الزنجية :

« هناك المجد .. إنه بيت الله وأفكاره .. ليس هناك أصوات جليلة وغرغاء ..

فالمبشرة استاذتي حدثتي حقاً عن الحب ، ولكنها كانت قد فرت من جميع عشاقها

ومحببها لتعمل عمل الله ..

فالببيض يبعدون عيونهم عنى .. لئلا يقعوا في حبي ..

إن جماعات كثيرة من الفساء والرجال وهبوا أنفسهم لخدمة الله .. ورغم أنهم جميعاً

لأخوة وأخوات .. ولكنهم لا يتحدثون بعضهم لبعض ..

والغريب أن برنارد شو نفسه كان متعجباً من مغامرات الزنجية الحسنة . ويقول

لقرائه في صفحة ٩٥ من الكتاب بأنه أوحى إليه أن يكتب الرواية ، ثم أنذرهم

« ربما تكون هذه الرواية لغو وهراء .. »

ويقول أيضاً .. « على ضوء خبرتي وتجاربي أقول إن قوة الوحي قد تكون

خطئة خطأ تاماً فيما توحى به كما جاء في كتاب « الحرب المقدسة » لبنيان ، فكتابه لغو

لا طائل من وراءه ١١ »

برنارد شو شخصيته

يقول الأستاذ هاكت : إن جورج برنارد شو منقسم إلى شخصيتين : شخصية

جورج وشخصية برنارد .

وأحدهما وهو جورج د نبي ، لا يفتن اليه الرأي العام ..
وثانيهما وهو برنارد رجل له نظرات مدهشة ثاقبة ، بل هو شديد الملاحظة .
يجمع الحقائق اينما سار ، ثم يعطيها لجورج لتقييدها . وهو رجل شديد المراس .
يحترم د قوة الحياة ، ويعمل تحت مباشرتها وإرادتها .

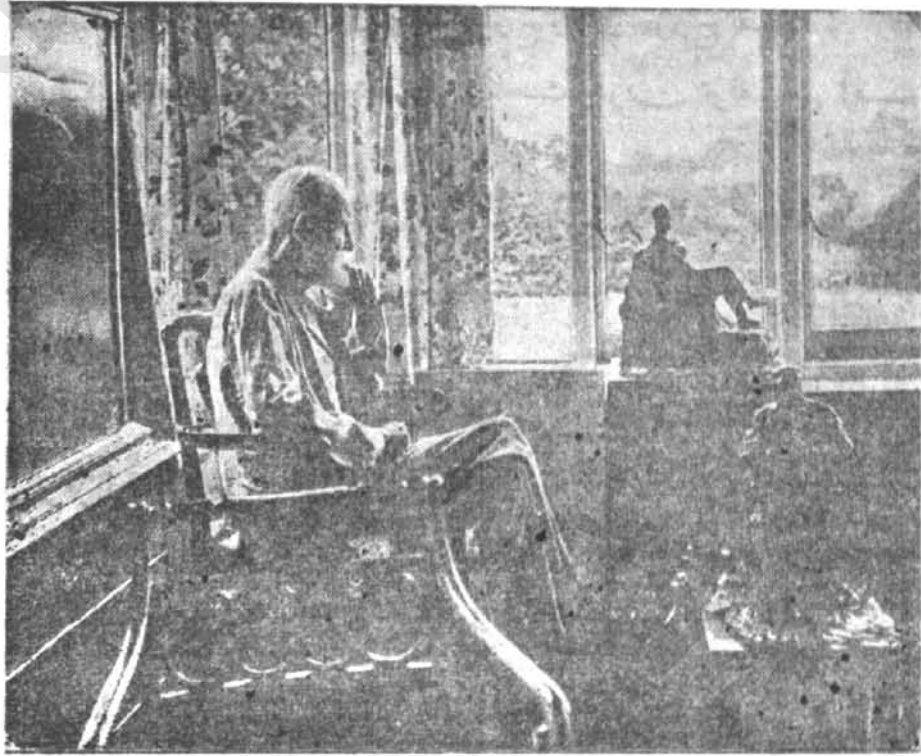
فقد جمع لها المواد ليتمكن د للتطور الخالق ، أن يكون دين القرن العشرين .
ولكن الحقيقة أنه كثيراً ما يتقدم برنارد ليلقي نظرة على إله جورج ، ثم يهز
رأسه عجباً ويقول بأنه لا يعتقد لاف إله جورج ولا في جورج نفسه .
ولكنه يعتقد بأن جورج يتحدث ، ويتحدث بدون توقف حتى أصبح
كجناك تانر ١١ ،

وبمعنى قريب ، يقول هاكت أيضا : د إن جورج لا يمتزج بالاصطلاحات
المجردة ، ولكنه يقدم لنا صورا سريعة دقيقة المعالم . كلها تحتوي على عواطف
نبيلة ورفيعة .

وأخيراً لجورج عبد ، لأنه يسجد لاعتقاده ، ويعبد د قوة الحياة . ، لأنه يعمل
لها أو قل الحقيقة أنها هي التي تعمل فيه ١١

أما د برنارد ، فرجل حر ، لأنه يقدر قيمة الحرية ، وقوة الاختيار ، ويرفض هذا
المجد الزائف الذي يتمتع به جورج ويهيم في أوديته على غير هدى . ١١ ،





المفكر الحر